الغرب والإسلام في الجزائر
تحليل لمعوقات التفاهم

د. بشير خليفي،
مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية،
جامعة معسكر – الجزائر-

يشكل الواقع الاجتماعي الجزائري حالة فريدة للتحليل السوسيولوجي والانتربولوجي بالنظر إلى خصوصيته التي تبرز في ضوء الإشكالات والمعادلات المطروحة معرفيا والمرتبطة بالظواهر والتحولات التي يعيشها عبر الفترات الزمنية، الأمر الذي يولد أسئلة مفصلية تتناول توصيف هذه الظواهر وتتعمق في أسبابها.

إن محاولة تحليل ملامح المجتمع الجزائري وفهم خصوصيته عائدة بالأساس إلى رغبة في فهم هذه المظاهر والتحولات بالشكل الذي يمكن إدراكه في ضوء المعرفة بالمحددات المعرفة بشخصية الفرد الجزائري.

و هي المحددات التي يلعب فيها الإسلام دورا بارزا، كعقيدة تمد معتنقيها بجملة التفسيرات التي يعرف بها نفسه و يبرر بها وجوده.

لقد ساير الإسلام منذ دخوله إلى الجزائر تحولات وتشكيلات ارتبطت أحيانا بطريقة فهمه وتمثله، الأمر الذي أوجد تحولا عبر بعد زمني شاقولي ارتبط بتأثير عامل الزمن بالنظر إلى التبدلات الحاصلة من خلال عنصر التغيير و القدم، و كذا في بعد أفقي أوجد فهومات متنوعة وتشكيلات مختلفة.

إن وضع الإسلام في الجزائر يشكل خصوصية، فعلى الرغم من التقاطعات العديدة التي تبرزها صورة الفرد المسلم و العادات المنتشرة بين المسلمين، إلا أن ذلك لم يمنع من اتسام المجتمع الجزائري بالخصوصية المتأتية أساسا من الحوادث والمنعطفات التاريخية والاجتماعية التي لعب فيها الدين الدور الأبرز.

لقد شكل الإسلام الشكل الهوياتي الأبرز في فترة الاستعمار وهو ما سعت جمعية العلماء المسلمين إلى تجليته

مع بداية الثلاثينات من القرن المنصرم بغرض العودة إلى الأصول وبالتالي التميز عن الهوية المقابلة المشكلة للمستعمر.

و هو المجال الذي اتضح فيه الآخر كانتماء مختلف فكريا و عقديا مع رغبة جامحة في تأسيس " النحن " عبر ملمح الوطنية التي تشكل اللغة العربية وجهه الآخر.

لقد أصبح من الواضح أن التشكل الهوياتي قد برز في ضوء سعي لتمثل نموذج مواطنة يشكل الإسلام عنوانه الأبرز بمقابل آخر ينتمي إلى مجموعة مفارقة و يختلف عن " النحن " في الشكل والنفسية واللغة والمعتقد.

مما أدى إلى بروز الدين كضامن مفصلي للهوية الوطنية ومحفز للدفاع عنها، وهو ما اتضح بشكل بارز في عهد الاستعمار في ضوء تغذية روح المقاومة وكذا في إشارة " الإسلامية " التي كثيرا ما عبرت عما هو جزائري.

الإسلام والغرب: الصورة العامة للصراع

وضع الإسلام بمقابل الغرب أو العكس في إطار ثنائي مانوي مسألة تحتاج إلى تجلية بطرح التساؤل عن الحدود الضامنة لهذا التشكيل الهوياتي (الإسلام بمقابل الغرب).

والواقع أن موضوعة الغرب كدائرة مغلقة متماسكة ارتبطت في تقابلها مع الإسلام في إطار صراع وتنافس يرنو إلى اكتساب مناطق نفوذ بالشكل الذي حدث مع الاستعمار أو بشكل متقدم مع الحملات العسكرية المسماة بالصليبية.

ليتحدد هذا الإطار في سمات الآخر المختلف، المتطور، الغالب - بلغة ابن خلدون - الذي ينبغي إما إزاحته بالسيطرة عليه وبالتالي تحطيم ما توصل إليه أو التفاعل معه ومحاورته والاستفادة من منجزه الحضاري في صعد مختلفة.

لقد أوجدت التعقيدات التي أبرزتها العولمة في توجهاتها السياسية والاقتصادية والثقافية المؤسسة على أهمية الربح والعائد المادي كفيصل لكل المقاربات التفاعلية سعيا للتحكم والتفرد في وسائل الإنتاج وآلياته وبالتالي ربح أكبر قدر من الأسواق ورؤوس الأموال.

وهو التوجه الذي برز في الولايات المتحدة الأمريكية من خلال أدبيات المحافظين الجدد وتطبيقاتهم السياسية حيث وجدوا في حوادث الحادي عشر من سبتمبر الذريعة المثلى لمعاودة الظهور بشكل بارز عن طريق توطيد الإحساس بالانتماء الوطني والديني باستثمار تمثلات المفكرين كإدموند بيرك و ليوستراوس الداعية إلى توطيد مكامن القوة و التفوق عن طريق إحداث " الضربة الاستباقية " لقوى " الشر المحض ".

و قد تجسد هذا الطرح عن طريق غزو العراق و أفغانستان، وكذا بفتح معتقل غوانتنامو الشهير الذي أسرت فيه السلطات الأمريكية من وصفتهم " بالإسلاميين المتشددين ".

لقد أجج الخطاب الإعلامي الدعائي لبعض القنوات والوسائل الإعلامية " صورة المسلم المتشدد " وراحت تحشد هذا التصور بالمحمولات التي يبرزها أحيانا بعض المسلمين أنفسهم من خلال قناعاتهم وتصرفاتهم المنافية للفهم الإنساني للإسلام.

الأمر الذي أدى إلى بروز ظاهرة الاسلاموفوبيا كحالة نفسية واستجابة لمبررات عديدة كانت الدافع نحو تهديد تمثلات غربية أخرى عن الإسلام تتسم بالهدوء والتنوع لصالح تصورات تنميطية ثابتة ترى في صورة المسلم حالة بلاغية للشهوة والقسوة (هشام جعيط 1995:16).

والواقع أن الاسلاموفوبيا تشكل حالة إجحاف في حق المسلمين في ضوء كراهية شديدة وغير مبررة للإسلام برزت كحالة مؤججة بعد حوادث الحادي عشر من سبتمبر عبر مظاهر عنصرية صريحة أو توظيفا لقوانين تحد من " أسلمة الغرب ".

الغرب والإسلام في الجزائر: استقصاء العوائق

هذه العلاقة ليست نتاجا لعقلانية معزولة، و إنما هي نتاج لتفاعل حثيث بين تصورات وبنى مختلفة تتأثر بالمنطلقات وكذا التراكمات والأبعاد، وهي الحالة التي يمكن أن ننعت بها محاولة فهمنا للحالة الإسلامية في الجزائر تحديدا في علاقتها مع الغرب.

تفرد الحالة الإسلامية في الجزائر يشكل إضافة للمعطى الإسلامي العام، وهو الأمر المتأتي في خصوصية البادية من كرنولوجيا

المجتمع الجزائري بداية من دخول الإسلام واعتناق الجزائريين له مرورا بالاستعمار الفرنسي وصولا إلى قيام الحركات الإسلامية وكذا إلى حالته اليوم، عن طريق الخصوصية الحادثة وطنيا عبر الكرنولوجيا الخاصة للشأن الإسلامي وكذا وضعيته على حد سواء، ومن جهة أخرى في التباين الحادث بين الفلسفات التي تتبناها الحركات الإسلامية والتي يمكن إدراكها مثلا في التوجهات السياسية للأحزاب التي تتخذ الإسلام منطلقا لها (Boubekeur Amel2007:01).

والواقع أن بروز التوجه الإسلامي عبر قناعات تدعو إلى تطبيقية وتفعيله يعود لأسباب خارجية مرتبطة بالجو العام على الصعيد العالمي والإسلامي في ضوء نجاح الثورة الإيرانية (1979) وكذا الغزو السوفياتي لأفغانستان (1979) وصولا إلى اتفاقية كامب ديفيد في السنة نفسها والتي رأى فيها كثير من المعتقدين في جدوى الحل الإسلامي اعترافا بالعدو الأبدي.

كما يعود هذا البروز لأسباب داخلية تعود جذورها إلى مرحلة ما قبل الدولة الوطنية وبشكل جلي مع إسهامات جمعية العلماء المسلمين التي رفعت راية الهوية الإسلامية، بما يشكل الهوية الضائعة التي اتجهت بعض التمثلات الدينية إلى محاولة استعادتها بعد الاستقلال كفعل يرنو إلى تشكيل ملمح هوياتي جزائري مختلف في شكله و مضمونه عن الهوية التي سعى الاستعمار الفرنسي إلى ترسيخها.

وقد تم ذلك عبر إنشاء جمعية القيم في 14 فبراير 1963 بتأطير من الهاشمي تيجاني وعبد اللطيف سلطاني في محاولة لتأصيل البعد العروبي

والإسلامي، وكذا من خلال إصدار مجلة التهذيب الإسلامي عبر إسهام شهري يشجع تفعيل القيم (الزبير عروس 1992: 16).

هذا زيادة على إسهامات ملتقيات الفكر الإسلامي بالنظر إلى العناية السياسية والاجتماعية التي لاقتها حينذاك، حيث شكلت فرصة للقاء بعلماء الإسلام خصوصا، وبالتالي مد المشروع الديني في الجزائر بمبررات إضافية للتطور والاستمرارية.

لذلك كثيرا ما كان ينظر إلى مضادات الهوية الإسلامية على أنها صنيعة غربية أو استعمارية بالأساس، وهو الوعي الذي اتجه في ضوئه أشد مناصريه في منتصف الثمانينيات إلى تنظيم الحملات التأديبية بغرض تطهير المجتمع من مراكز الفجور وصولا إلى تبني الموقف السياسي في شكله الذي يشجب تصرفات السلطة الخارجة عن التعاليم الدينية محل الاعتقاد.

وهو المنطق الذي وجد في الخلفية السوسيو تاريخية السند الملائم لاستمرارية الفعل المرسخ للتصور الهوياتي والذي يحيل بالمقابل إلى طريقة فهمها للآخر المختلف، والذي عادة ما كان ينظر إليه كعائق رئيس أمام الرغبة في التطور بحسب المقاسات الإسلامية بالشكل الذي يمكن إدراكه من خلال عدد لا يستهان به من القيم المتباينة التي يمكن التفريق في ضوئها بين الشرق والغرب، وهي القيم المتباينة التي أوجدت انشطارا إيديولوجيا بين خطاب محافظ على القيم الأصيلة داع إلى إحياء الغائب منها، وخطاب آخر ينعت بالتحديثي يأخذ مبرراته من منطلقات تقنية ولغوية، الأمر الذي أسس لثنائية ظلت تحافظ على وجودها بالرغم من

التشظي السياسي الذي حصل بإنهيار الأحادية الحزبية، في ضوء تبني تعددية أبانت عن حضور إسلامي قوي في البداية.

لقد نظر الغرب في صورته السياسية خصوصا بعيني الريبة لتطور المد الإسلامي في الجزائر التي تحتل موقعا جيو استراتيجيا يمنحها فرصة الحيازة على وضعية متقدمة في علاقتها مع أوروبا وكذا بسبب العلاقة التي تفرضها حضور الجالية الجزائرية.

هذا زيادة على المصالح الاقتصادية والتجارية المشتركة، بالنظر إلى دور الجزائر المفصلي في تزويد أوروبا بالبترول والغاز وكذا اعتبارها سوقا نموذجيا لتصريف المنتوج الأوروبي.

وقد أججت تلك الرؤية تصريحات وتصرفات بعض المنتسبين الذين رأوا في فرنسا - مثلا – الحليف الجزائري الأول، وفي الغرب عموما سببا في تفشي ظاهرة الفساد والانحلال التي تمثلها القيم الغربية من خلال الطروحات الليبرالية التي تدعو إلى الحرية الشخصية والمساواة بين الجنسين.

معالم في طريق التفاهم

لا أحد ينكر الإسهامات والاجتهادات التي تجسدت في أشكال التفاهمات بين الإسلام والغرب، ففي الجزائر مثلا يمكن الحديث عن الكاتبة السويسرية الروسية الأصل إيزابيل إبيرهارت التي عمدت في كتبها إلى الاحتفاء بالإسلام، ما دفعها لاعتناقه واستلهام جوانبه الروحية بالشكل الذي برز في مؤلفها " تحت الظلال الدافئة للإسلام ".

وهو الاحتفاء الذي نجده عند إتيان ديني الرسام العالمي الفرنسي الأصل الذي أبرز برسوماته سماحة الإسلام وبعده الإنساني (Bruno Etienne: 1989:110).

والواقع أن علاقة الغرب بالإسلام لم تخرج في عمومها عن تصورات يغلب عليها طابع القبلية والثبات في ضوء حالة غرائبية مشبعة بروح الأسطورة كما هو حادث في ألف ليلة وليلة، أو حالة انبهار وتقديس رأى البعض أن باطنها لا يخرج عن إطار التقريظ الزائد عن حده الذي يدرأ الرغبة في العمل والتطوير أو حالة ثالثة هي نتاج تراكم تاريخي أوجد بروزه العالمي مع حوادث الحادي عشر من سبتمبر في الشكل الذي أصبح يعرف بالإسلاموفوبيا.

لقد برز هذا التفريع الذي أوجد حضوره في الجزائر نتيجة تأثيرات الساحة العالمية وكذا بالنظر إلى خصوصية الحالة الجزائرية المتأتية مما عاشته من عنف في ما أصبح يسمى " بسنوات الدم و الدمار ".

لقد شهدت الجزائر في أوج العنف الذي شاهدته تقتيلا وإبادة لعدد من الأجانب تحت طائلة مبررات دينية رمت الأجانب بالعدائية على مستوى الملة والقناعات وكذا بالنظر إلى موقف بلدانهم الأصلية.

ولازالت بعض الحوادث تلقى بظلالها على طبيعة التفاهم، خصوصا ما تعلق بحادثة رهبان تبحرين بدير سيدة الأطلس بولاية المدية حيث تم قتل مجموعة من الرهبان الأمر الذي وسع الهوة بالشكل الذي ألب الرأي العام الفرنسي خاصة والغربي عموما على الإسلام والمسلمين.

هذا زيادة على ما يتم الترويج له من قبل بعض وسائل الإعلام ذائعة الصيت التي تضخم تصريحات المتشددين وتبرز صورهم وكلماتهم مدعمة

بترجمة حرفية مباشرة لما يقولون والتي يعمدون فيها إلى تكفير الغرب ويدعون إلى إبادته.

ويبقى الحوار رهينا للذكريات المؤلمة والمفاهيم الخاطئة المؤسسة على عناد المتلقى وتسرعه في الأحكام أحيانا ، الأمر الذي أدى في شكله العام إلى إقصاء متبادل أبانته مواقف كثيرة تراكمت عبر التاريخ، خصوصا تلك المواقف ذات السمة النفسية عبر تداعيات 11 من سبتمبر أو في ضوء تلك النظرة النمطية الثابتة التي تماهي بين المسلم والتخلف والإرهاب.

وكذا من خلال تصور الضفة الأخرى الذي يرى في الغرب سببا مباشرا لأزمة فلسطين وكذا سياسات القهر التي تعيشها الجاليات الإسلامية التي لا تحترم خصوصياتها عبر حالات منع الحجاب على سبيل المثال لا الحصر.

إن كثيرا من المؤسسات السياسية والدينية ممثلة في اليمين السياسي والديني تدق نواقيس الخطر عبر ما يسمى بالخطر الإسلامي من خلال تنامي عدد المسلمين وهو الأمر الذي أبرزه اليمين السياسي الفرنسي عبر لوحات انتخابية حذرت من الخطر الإسلامي في صورة لامرأة متحجبة وبأيقونة تحيل إلى ما هو جزائري الأمر الذي فهم أنه استثمار للأزمة الجزائرية لمصالح انتخابية.

وفي ظل هذا الزخم من الصراع يبرز شكل آخر في الرغبة في التفاهم وتجاوز مختلف العوائق وتفكيكها سواء في ممارسة النقد الذاتي أو التوجه نحو الآخر بغرض تأسيس منطلقات حوار يدرأ التأويل المتطرف والصور النمطية.

وفي هذا السياق يمكن الإشارة إلى إسهامات المفكر الجزائري مصطفى شريف الذي يتوجه نحو تبني عمق أكاديمي في طروحاته المعرفية من خلال رغبته في إشراك أهم رموز المعرفة الإنسانية في الحوار الدائر مع الغرب ممثلة في جاك دريدا وجون لوك نانسي.

كما يعتقد مصطفى شريف أن الغرب لازال يضع العوائق أمام حوار علمي هادف وذلك في تبنيه لمفاهيم مؤسسة على مصالحه الخاصة وعلى توظيف سلوكات المتزمتين واعتبارها دلالة على جوهر الإسلام (Cherif Mustapha2005:18)، .

لقد عمد مصطفى شريف إلى تفكيك معوقات التفاهم وذلك بتبني رؤية في حوار يبدأ أولا بالاستعداد النفسي ليتجه على مستوى القصد نحو الطبيعة الفكرية، العلمية والدينية، وهو ما اتضح في توجهه نحو أعلى الهرم المسيحي حينما التقى مع البابا بنديكت السادس عشر في 11 نوفمبر 2006 (Bousquet François2009:55) .

وتتأسس دعوة مصطفى شريف على عدم تبديد المسلمين لجهودهم أثناء إبراز مكامن قوة الدين الإسلامي، بالقدر الذي تساهم هذه الجهود خصوصا المعرفية منها في تجاوز النتائج الكارثية لحوادث 11 من سبتمبر الشهيرة.

تجدر الإشارة إلى أن التقصي المعمق بغرض التعرف على أسباب الحقد والكراهية أمر مفصلي لإيجاد محفزات هذه العلاقة التي ينبغي أن تتوجه في إطار إنساني يدرأ الأفكار المتزمتة التي ترى في الغرب إباحية وفي الشرق تعصبا لصالح ميزان قوى جديد ينبني أولا على قيم التعايش، فقد كان التعايش سببا مهما في اعتناق إيزابيل إبيرهارت الإسلام حينما

تعرفت على زوجها الجزائري سليمان هني، كما كانت للصداقة حضورها مع الرسام العالمي إتيان ديني الذي عاش و مات وفيا لصديقه الجزائري سليمان بن براهيم باعمر.

أخيرا، يمكن القول أن الحالة الجزائرية لواقع الإسلام في تفردها وعموميتها تتقاطع في جوانب عديدة مع الحالات الموجودة في المجتمعات الإسلامية الأخرى ليتحدد في هذا الإطار فهم الغرب للإسلام أساسا بالمسلمين وقدرتهم على الإقناع وكذا قوتهم المادية إضافة إلى سلوكاتهم التي تعكس البعد الإنساني للإسلام على الرغم من الحاصل في حملات التشويه التي يتعرض لها.

وتبدأ الخطوة الأولى بتفعيل المؤسسات الدينية الكفيلة بتبليغ الإسلام الحضاري والعمل على تفعيله وترويجه عن طريق الأفكار والسلوكات التي ينخرط فيها جميع المسلمين وخصوصا أولئك المنتمين لمجال البحث.

إن تآزر الجهود في خدمة أهداف إنسانية محددة سيجلب فائدته لصالح أكبر قدر من الناس في الشرق والغرب بالشكل الذي يعطي للآدمية صفتها الحقيقية، خصوصا وأننا نعيش في زمن يروج فيه كثير ا لمقولة الصراع الثقافي الذي لا مكان فيه لثقافة لا تملك القدرة على الإقناع والانتشار.

المراجع

جعيط هشام(1995)، **أوروبا والإسلام**، دار الطليعة، بيروت.

عروس الزبير (1992)، **في بعض قضايا المنهج وتاريخ الحركة الإسلامية بالجزائر**، مجلة نقد للدراسات والنقد الاجتماعي، مطبوعات المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، العدد الأول.

Boubekeur Amel(2007)، Political Islam in Algeria، CEPS Working Document N 268، Belgium.

Bousquet François (2009)، Le Dialogue Interreligieux، Edition Institut Catholique de Paris

Bruno Etienne(1989)، La France et L'islam، Hachette، paris.

Cherif Mustapha(2005)، L'islam، L'autre et la Modernité، ANEP، Alger.